تدريس العلوم الصحية باللغة العربية :
آفاق واعدة من خلال مبادرات مغربية

أ. احمد عزيز بوصفيحة

تعتبر الأنظمة التربوية و التعليمية لكل بلد من ضمن الركائز الأساسية التي يجب الاهتمام بها و تحديدها ، فذلك لا يتم اعتباطيا أو ارتجاليا بل يستند إلى تشريعات ونصوص وقوانين مؤطرة تترجم قيم وهوية البلد ونظامه و مقوماته الدينية والثقافية والاجتماعية،و ثوابت تاريخية وحضارية.

و تشكل اللغة أهم مقومات شخصية الأمة لذلك يتم تحديد اللغة الرسمية للبلاد تعبيرا وكتابة داخل دساتير الدول ، كما هو الشأن بالنسبة للدستور المغربي و الذي أشار في فصله الخامس بأن اللغة العربية لغة رسمية للدولة التي تعمل على حمايتها وتطويرها وتنمية استعمالها، كما دعا إلى تعلم وإتقان اللغات الأجنبية الأكثر تداولا في العالم: الفرنسية والانجليزية والإسبانية وغيرها.

لكن و من خلال الرجوع إلى أرض الواقع يتضح التناقض بين واقع التعليم الجامعي و الدستورالمغربي الذي ينص على أن اللغة العربية لغة رسمية، إذ يلاحظ سيادة اللغة الفرنسية على التعليم الجامعي وخصوصا في ميدان العلوم الصحية ، وأيضا يتناقض هذا الواقع مع توصيات منظمة اليونسكو باستخدام اللغة الوطنية في التعليم إلى أقصى مرحلة ممكنة. إذ يعتبر تعليم الطب باللغات الوطنية ليس فقط مسالة تأكيد للهوية و تعميق للذات، بل ضرورة حتمية لنجاعة العملية التربوية. إذ يسهّل ذلك، التواصل بين أستاذ الطب و الطالب المتلقي ، و يربط جسور التفاهم بين مهنيي الصحة و مستعملي الخدمات العلاجية من ناحية أخرى. و يؤدي التواصل بين الأستاذ و الطالب إلى استيعاب أعمق و أوسع للمعارف المقدمة، كما يوفر التعليم باللغة العربية فرصة أفضل لاندماج المهني في المجتمع .

دور اللغات الوطنية في التنمية و التقدم العلمي

من خلال دراسة قامت بها منظمة الصحة العالمية في الثمانينات من هذا القرن على ١٢٥٩ كلية طبية في ١٢٨ دولة، لوحظ أن البلاد التي لا تزال تعلم الناس بلغة غير لغتها عن لسانهم جد قليلة ، فجميع الدول المتقدمة تدرس بلغتها كاليابان والصين وكوريا الجنوبية التي حقَّقت في فترة وجيزة قفزةً عالية في مجال الاقتصاد والتطور العلمي والتقني والصناعي. أما الدول الغربية التي اعتمدت على لغاتها الخاصة فهي كثيرةٌ كما نعلَم في مقدمتها: روسيا وألمانيا و الدانمارك والنرويج وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا واليونان وغيرها". بل و حتى اللغات المنسية والشبه المنقرضة مثل العبرية تستخدمها "إسرائيل" في تعليم طلابها بها !!! ، كيف يمكن أن ننسى علماء العرب و المسلمون القدامى و الذين قدموا للطب الحديث كثيرا من المراجع العلمية القيمة باللغة العربية؟ وأن النهضة الأوربية الحديثة جاءت بعد النهضة العربية؟. إننا نحتاج هنا لتمحيص مدى قدرة اللغات العربية على الاستيعاب المعارف المُستورَدة التي تتفاعل إيجابا مع عناصر الثقافة المَحلّية والمتأصِّلة . وهذا شرط قديم في اقتناء المعارف بغرض توطين المعرفة ثم الانتقال بها إلى مرحلة الإبداع والإنتاج المعرفي.(١)

يعتبر التعليم باللغات الوطنية عموما و الطب خصوصا ، ليس فقط مسالة تأكيد للهوية و تعميق للذات، بل ضرورة حتمية لنجاح العملية التربوية. إذ يسهّل ذلك، التواصل بين معلّم المواد الطبية و متعلمها من ناحية، ويربط جسور التفاهم بين المهني الصحي و مستعملي الخدمات العلاجية من ناحية أخرى. و يؤدي التواصل بين المعلم و المتعلم إلى استيعاب أعمق و أوسع للمعارف المقدمة، كما يوفر التعليم باللغة العربية فرصة أفضل لاندماج المهني في المجتمع.

وقد يظن البعض أن تعليم الطب باللغة العربية أدى إلى تدني مستواه في بعض الأقطار العربية كالتجربة السورية مثلا ، فقد اجري الأستاذ الدكتور زهير السباعي من جامعة الملك فيصل بالسعودية بحثا عن نتائج الأطباء السوريين في امتحان (ECFMG) وهو امتحان المجلس التعليمي الأمريكي للأطباء الأجانب الذي يعقد باللغة الإنجليزية عدة مرات كل عام بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويتقدم إليه في كل مرة نحو عشرة آلاف طبيب من مختلف أنحاء العالم، ومن يجتازه يحق له العمل أو الدراسة الطبية العليا في الولايات المتحدة الأمريكية. فجدول١ يبين أن مستوى الأطباء السوريين لا يقل في امتحان ECFMG عن مستوى زملائهم الأطباء من مختلف أنحاء العالم. أي أن تعلم الطب باللغة العربية لم يكن عائقا أمام الأطباء السوريين يحول دون أدائهم للامتحان واجتيازهم له بنجاح.(٣- ٢)

تاريخ الامتحان	إجمالي المتقدمين	معدل العلامات	عدد الأطباء السوريين	معدل العلامات
يوليو ١٩٧٩	٨٩٣٠	٧١,٨	٣٩	٧٣,٧
يناير ١٩٨٠	٩٧٦٩	٧١,١	٣٥	٧١,٤
يوليو ١٩٨٠	١٠٨٧٩	٧٢,٠	٣٦	٧٢,٦

يقول الأستاذ الدكتور خيري أحمد السمره أستاذ جراحة المخ والأعصاب عميد كلية طب قصر العيني السابق "إن معظم دول العالم تدرس الطب بلغتها فالإنجليزي يدرس الطب بالإنجليزية والفرنسي بالفرنسية والألماني بالألمانية والأسباني بالأسبانية والصيني بالصينية والياباني باليابانية...الخ. حتى اللغات المنسية والشبه منقرضة مثل العبرية تستخدمها إسرائيل في تعليم طلابها. هذا وليس معنى تدريس الطب باللغة العربية إهمال معرفة لغة أجنبية لذا يتحتم تدريس اللغة الإنجليزية في جميع سنوات الدراسة الطبية وان يوضع مقرر مكثف لذلك يقوم بتدريسه أساتذة متخصصون من كليات الآداب أو الألسن مثلا فيصبح خريج الطب الدارس باللغة العربية متمكنا تماما من اللغة الإنجليزية وبالتالي يمكن له حضور الندوات والمؤتمرات العالمية"(٤) .